

خطبة بعنوان: دروس نحو البناء والتعمير من خلال الهجرة النبوية

بتاريخ: ٢٨ ذو الحجة ١٤٣٧هـ - ٣٠ / ٩ / ٢٠١٦م

عناصر الخطبة:

الدرس الأول: التخطيط ودوره في البناء والتعمير

الدرس الثاني: الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله

الدرس الثالث: ترك التهاجر والتناحر

الدرس الرابع: الهجرة والإيجابية

الدرس الخامس: إخلاص العمل لله

الدرس السادس: أن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه

المقدمة: أما بعد:

عباد الله: تعالوا بنا ونحن في ذكرى هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم نقف مع حضراتكم مع الدروس المستفادة في البناء والتعمير من خلال الهجرة النبوية؛ وفي الحقيقة حادث الهجرة مليء بالدروس والعبر؛ ولكني أقتصر في هذا اللقاء على الدروس الخاصة بالبناء والتعمير ونهضة الأمة؛ ولا سيما في هذه المرحلة الحرجة التي تمر بها البلاد؛ وهذه الدروس تتمثل فيما يلي: -

الدرس الأول: التخطيط ودوره في البناء والتعمير.

أحيتي في الله: إن التخطيط أساس نجاح أي عمل من الأعمال؛ سواء في حياة الفرد أو الدولة، وهو الطريق الذي يرسم بصورة مسبقة لسلوك الفرد أو المنظمة عند اتخاذ القرارات وتنفيذ العمل، بشرط أن يكون وفق منهج فكري عقائدي متمثل بالإيمان بالقدر والتوكل على الله.

ففي حدث الهجرة خطط النبي صلى الله عليه وسلم خطة متينة محكمة، فعلى - رضي الله عنه - على فراشه صلى الله عليه وسلم مغطياً رأسه، وibat المحرمون ينظرون من شق الباب، يتهافتون أيهم يضرب صاحب الفراش بسيفه، وعبدالله بن أبي بكر كان يصبح مع قريش فيسمع أخبارها ومكائدها فإذا اختلط الظلام تسلل إلى الغار وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم الخبر فإذا جاء السحر رجع مصباحاً بمكة، وكانت عائشة وأسماء يصنعان لهما الطعام ثم تنطلق أسماء بالسفرة إلى الغار ولما نسيت أن تربط السفرة شقت نطاقها فربطت به السفرة وانتطقت بالآخر فسميت بـ (ذات النطاقين)، ولأبي بكر راع اسمه عامر بن فهيرة، كان يرعى الغنم حتى يأتيهما في الغار فيشربان من اللبن، فإذا كان آخر الليل مر بالغنم على طريق عبدالله بن أبي بكر عندما يعود إلى مكة ليخفي أثر أقدامه، واستأجر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً كافرأ اسمه عبدالله بن أريقط وكان هادياً خريئاً ماهراً بالطريق وواعده في غار ثور بعد ثلاث ليال، فتوزع الأدوار جاء مرتباً مخططاً منظماً وفق خطة علمية مدروسة، فالقائد: محمد، والمساعد: أبو بكر، والفدائي: علي، والتموين: أسماء، والاستخبارات: عبدالله، والتغطية وتعمية العدو: عامر، ودليل الرحلة: عبدالله بن أريقط، والمكان المؤقت: غار ثور، وموعد الانطلاق: بعد ثلاثة أيام، وخط السير: الطريق الساحلي.

وهذا كله شاهد على عبقريته وحكمته صلى الله عليه وسلم، وفيه دعوة للأمة إلى أن تحذو حذوه في حسن التخطيط والتدبير وإتقان العمل واتخاذ أفضل الأسباب مع الاعتماد على الله مسبب الأسباب أولاً وآخراً.

إن الله قادرٌ على حمل نبيه في غمامة أو سحابة أو يسخر له الريح - كما سخرها لسيدنا سليمان - فتحمله في طرفة عين من مكة إلى المدينة، ولكن الله يريد أن يعطينا درساً لا ننساه وهو التخطيط والأخذ بالأسباب.

كما أن التخطيط لمستقبل أولادك أمر واجب عليك، حتى تضمن لهم حياة كريمة وشريفة، فإنني أعجب كل العجب ممن يتزوج امرأتين وثلاث وأربع - مع عدم اعتراضه على ذلك بل أشجعه - وينجب من كل واحدة خمسة أولاد أو ستة ثم يتركهم رعاياً متشردين.

انظر إلي تخطيط النبي لحاله سعد بن أبي وقاص حينما حضره الموت، يقول: "مَرِضْتُ عَامَ الْفَتْحِ حَتَّى أَشْفَيْتُ عَلَى الْمَوْتِ ، فَعَادَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقُلْتُ : أَيُّ رَسُولِ اللَّهِ ، إِنَّ لِي مَالاً كَثِيراً وَلَيْسَ يَرْتُنِّي إِلَّا ابْنَةُ لِي ، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِي مَالِي؟ قَالَ : لَا . قُلْتُ : فَالْشَّطْرُ؟ قَالَ : لَا . قُلْتُ : فَالْثُلُثُ؟ قَالَ : الثُّلُثُ ، وَالثُّلُثُ كَثِيراً إِنَّكَ أَنْ تَتْرَكَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَتْرَكَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ." (البخاري)

إن مجتمعنا في حاجة ماسة إلى قيمة التخطيط - أسوة بنينا صلى الله عليه وسلم - حتى نهض ونبني مجتمعنا فكرياً واقتصادياً وسياسياً وعسكرياً..... إلخ

وكما تُخطط لدنياك خَطِّطْ لآخرتك، وذلك بعمل خطة وجدول لصلاتك وقيامك وقراءتك للقرآن واطلاعتك..... إلخ، وضع لنفسك عقاباً إن قصرت، فمثلاً إن قصرت في صلاة جماعة مرة أتبع بجنيه للمسجد، فيكون عقابك طاعة، وهكذا في جميع طاعاتك المدرجة في جدول التخطيط والتنظيم، واعلم أن كل يوم يمر عليك دون عمل، لا بد أن تحزن عليه، كما قال عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - : " ما حزنت على شيء قط حزني على يوم غربت شمسُه نقص فيه أحلي ولم يزد فيه عملي "

بل ستندم ولا ينفحك الندم، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من أحد يموت إلا ندم. قالوا: وما ندامته يا رسول الله؟ قال: إن كان محسناً ندم أن لا يكون ازداد، وإن كان مسيئاً ندم أن لا يكون نزع" (الترمذي)

الدرس الثاني: الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله

ينبغي على المسلم في عمله أن يأخذ بجميع الأسباب الموصلة إلى غايته وهدفه مع التوكل على الله تعالى؛ وهذا ما غرسه النبي في نفس الصحابي الذي أطلق الناقة متوكلاً على الله؛ فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَعْقَلُهَا وَأَتَوَكَّلُ أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟ قَالَ: "أَعْقَلُهَا وَتَوَكَّلْ" (الترمذي وحسنه)

إن كثيرا من الناس يقعد في بيته وينتظر الرزق مع أنه لم يأخذ بالأسباب ولم يسع عليه فكيف يأتيه؟! لذلك رأى عمر رضي الله عنه - رضي الله عنه - قوماً قابعين في ركن المسجد بعد صلاة الجمعة، فسألهم: من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكلون على الله، فعلاهم عمر رضي الله عنه بدرته ونهرهم، وقال: لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق، ويقول: اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، وإن الله يقول: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ} (الجمعة: ١٠).

وروى ابن أبي الدنيا في "التوكل" بسنده عن معاوية بن قره، أن عمر بن الخطاب، لقي ناساً من أهل اليمن، فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكلون. قال: بل أنتم المتكلمون، إنما « المتوكل الذي يلقي حبه في الأرض، ويتوكل على الله ». وكان سفيان الثوري رحمه الله يُمِرُّ ببعض الناس وهم جلوسٌ بالمسجد الحرام، فيقول: ما يُجْلِسُكُمْ؟ قالوا: فما نصنع؟! قال: اطلبوا من فضل الله، ولا تكونوا عيالاً على المسلمين.

أخي المسلم: إنك لو نظرت إلى الهجرة وسألت نفسك سؤالاً: لماذا هاجر النبي صلى الله عليه وسلم سرا بينما هاجر عمر بن الخطاب في وضع النهار؟! متحديا قريش بأسرها، وقال كلمته المشهورة التي سجلها التاريخ في صفحات شرف وعز المسلمين وقال متحديا لهم: "من أراد أن تتكلمه أمه ويستم ولده وترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي" فلم يجرؤ أحد على الوقوف في وجهه، فهل كان عمر بن الخطاب أشجع من سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم؟! نقول لا: لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان أشجع الخلق على الإطلاق، ولكن أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بأسباب النجاة من التخطيط والتدبير والهجرة خفية واتخاذ دليل في الصحراء، ليعطينا درساً بليغاً في الأخذ

بالأسباب مع الأمل والثقة في الله والتوكل عليه. أيعجز ربنا أن يحمل نبيه في سحابة من مكة إلى المدينة في طرفة عين كما في الإسراء والمعراج !!؟

فما أجمل الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله، فعن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله: " لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَعْدُو حِمَاصًا وَتَرُوحُ بَطَانًا " [أخرجه الترمذي].

انظر إلى السيدة مريم عليها السلام قال الله فيها: { فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا، فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا، وَهَزَبِي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا حَنِيًّا، فَكُلِي وَاشْرَبِي وَفَرِّي عَيْنًا } (مريم: ٢٣- ٢٦)

تأملت في هذه الآية وقلت: امرأة جاءها المخاض (طلق الولادة) ومع ذلك أمرها الله بهز النخلة والأخذ بالأسباب، مع أنك لو جئت بعشرة رجال ذي جلد وقوة ما استطاعوا إلا رمياً بالحجارة، والله قادر على أن ينزل لها مائدة عليها أشهى المأكولات؛ ولكن الله أراد أن يعطينا درساً بليغاً في الأخذ بالأسباب مع الأمل والثقة في الله والتوكل عليه.

إن على الإنسان الأخذ بالأسباب حتى في أداء العبادات، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يَحْجُونَ وَلَا يَتَزَوَّدُونَ وَيَقُولُونَ: نَحْنُ مَتَوَكِّلُونَ، فَيَحْجُونَ فَيَأْتُونَ مَكَّةَ فَيَسْأَلُونَ النَّاسَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: { وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى } [البقرة: ١٩٧]، وسأل رجل أحمد بن حنبل فقال: أَيْخُرْجُ أَحَدُنَا إِلَى مَكَّةَ مَتَوَكِّلًا لَا يَحْمِلُ مَعَهُ شَيْئًا؟ قَالَ: لَا يَعْجُبُنِي فَمَنْ أَيْنَ يَأْكُلُ؟ قَالَ: يَتَوَكَّلُ فَيُعْطِيهِ النَّاسُ، قَالَ: فَإِذَا لَمْ يُعْطَوْهُ أَلَيْسَ يَتَشَرَّفُ حَتَّى يُعْطَوْهُ؟ لَا يُعْجِبُنِي هَذَا، لَمْ يَلْغُنِي أَنْ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالتَّابِعِينَ فَعَلَ هَذَا، وَلَكِنْ يَعْجَلُ وَيَطْلُبُ وَيَتَحَرَّى.

أحبتني في الله: أسوق لكم قصة جميلة عن سلفنا الصالح في الأخذ بالأسباب وعدم الكسل والركود والاعتماد على صدقات المحسنين: يروى أن شقيقاً البلخي، ذهب في رحلة تجارية، وقبل سفره ودع صديقه إبراهيم بن أدهم حيث يتوقع أن يمكث في رحلته مدة طويلة، ولكن لم يمض إلا أيام قليلة حتى عاد شقيق وراه إبراهيم في المسجد، فقال له متعجباً: ما الذي عجّل بعودتك؟ قال شقيق: رأيت في سفري عجباً، فعدلت عن الرحلة، قال إبراهيم: خيراً ماذا رأيت؟ قال شقيق: أويت إلى مكان خرب لأستريح فيه، فوجدت به طائراً كسيحاً أعمى، وعجبت وقلت في نفسي: كيف يعيش هذا الطائر في هذا المكان النائي، وهو لا يبصر ولا يتحرك؟ ولم ألبث إلا قليلاً حتى أقبل طائر آخر يحمل له العظام في اليوم مرات حتى يكتفي، فقلت: إن الذي رزق هذا الطائر في هذا المكان قادر على أن يرزقني، وعدت من ساعتني، فقال إبراهيم: عجباً لك يا شقيق، ولماذا رضيت لنفسك أن تكون الطائر الأعمى الكسيح الذي يعيش على معونة غيره، ولم ترض أن تكون الطائر الآخر الذي يسعى على نفسه وعلى غيره من العميان والمقعدين؟ أما علمت أن اليد العليا خير من اليد السفلى؟ فقام شقيق إلى إبراهيم وقبل يده، وقال: أنت أستاذنا يا أبا إسحاق، وعاد إلى تجارته.

هؤلاء قد فهموا الإسلام، عملاً وتعباً، جهداً وبدلاً، لم يفهموا الإسلام تقاعساً ولا كسلاً، ولا دعة ولا خمولاً، وذلك لأن الإسلام رفع من شأن صاحب اليد العليا، ولا يريد لأتباعه أن يكونوا عالة على غيرهم.

ومن أروع الأمثلة في الأخذ بالأسباب والتوكل على الله من أجل الرزق والسعي والضرب في الأرض للبناء والتعمير؛ ما حدث بين عبدالرحمن بن عوف و سعد بن الربيع؛ ” فعن أنس، قال: قدم عبدالرحمن بن عوف فأخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فعرض عليه أن ينافسه أهله وماله، فقال عبدالرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلني على السوق. فخرج إلى السوق وتاجر حتى أصبح من أغنى أغنياء المدينة؛ يقول عبدالرحمن بن عوف: فلقد رأيتني ولو رفعت حجرا لرجوت أن أصيب ذهباً وفضة. ” (السيرة النبوية لابن كثير) ؛ فقد ضرب لنا سعد بن الربيع أروع الأمثلة في الإيثار والمواساة؛ وضرب لنا عبدالرحمن بن عوف أروع الأمثلة في العفة والأخذ بالأسباب؛ وهذا تصديق لقوله صلى الله عليه وسلم: ” ومن يستعفف يعقه الله، ومن يستغن يغنه الله. ” (البخاري ومسلم) .

فعندما علم أهل المدينة بهجرة النبي - صلى الله عليه وسلم - تناسوا الخلافات والتشاجرات التي كانت بينهم، والحروب المستعرة التي ظلت سنوات عديدة؛ وذلك لأن الهجرة علمتهم روح التعاون والتماسك، وترك التهاجر والتناحر؛ لأنهما يؤديان إلى الفشل: { وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ } [الأنفال: ٤٦].

لقد ألف الله بين قلوب المسلمين بحضرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - في المدينة، حيث جمع الله به شتات المؤمنين، ووحدتهم بعد تفرقتهم امتثالاً لقوله تعالى: { وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } (آل عمران : ١٠٣)

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: "أن هذه الآية نزلت في شأن الأوس والخزرج، وذلك أن رجلاً من اليهود مرَّ بملاً من الأوس والخزرج، فسأه ما هم عليه من الاتفاق والألفة، فبعث رجلاً معه وأمره أن يجلس بينهم ويذكرهم ما كان من حروبهم يوم بُعثت وتلك الحروب، ففعل، فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم وغضب بعضهم على بعض، وتناوروا، ونادوا بشعارهم وطلبوا أسلحتهم، وتواعدوا إلى الحرة، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأتاهم فجعل يسكنهم ويقول: "أبدعوى الجاهليَّة وأنا بين أظهركم؟" وتلا عليهم هذه الآية، فقدموا على ما كان منهم، واصطلحوا وتعانقوا، وألقوا السلاح، رضي الله عنهم." هـ.

ويا ليت الأمة الإسلامية تستلهم هذه المعاني من الهجرة؛ كي ينتشر الحبُّ بيننا، وتتزع البغضاء والشحناء.

إنَّ الأمة الإسلاميَّة متى اجتمعت واتَّحدت، لم تستطع أمةٌ مَهْمَا كانت قوتها النِّيل منها؛ لأن يد الله مع الجماعة، ولأنها مع اتحادها محمية برَّها، وهذا ما عُرف على مرِّ السنين، فما قويت أمةٌ مُتفرقة مُشْتتة، وما ضُعفت أمةٌ اجتمعت وتكاتفت وارتبطت برَّها.

ألا فلنحتد جميعاً من أجل بناء مجتمعنا، من أجل بناء وطننا، من أجل بناء مصرنا، من أجل بناء حضارتنا، بعيدين عن التفرقة، عن التشرذم، عن التحزب، عن التشتت، حتى نحقق آمالنا، ويعلو بنياننا، ونبلغ منانا، فنكون جميعاً أدوات بناء لا أدوات هدم!!

ومتى يبلغ البنيان يوماً تاماً..... إذا كنت تبني وغيرك يهدم!!!

الدرس الرابع: الهجرة والإيجابية

لا شك أن المسلم يؤثِّر ويتأثَّر بما حوله، والسلبية تزلزل كيانَ المجتمعات وتؤدِّي إلى انهياره، وهذا ما أكده رسولنا - صلى الله عليه وسلم - محذراً من السلبية وخطرها؛ فعن النعمان بن بشير -رضي الله عنهما- عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَثَلُ الْقَائِمِ فِي حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَأَقِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَصَارَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلُهَا، وَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِينَا حَرْقًا لَمْ نَأْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا، هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ بَجَّوْا وَبَجَّوْا جَمِيعًا» (رواه البخاري).

هذه الإيجابية هي خط الدفاع الأول للحفاظ على كيان الدولة الإسلامية، وهي منهج حياة المسلم، قال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مَنكراً فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» (رواه مسلم).

وهذه الإيجابية نراها واضحة في أحداث الهجرة، حيث جعل النبي صلى الله عليه وسلم لكل المجتمع دوراً (الشباب، والشيوخ، والنساء)؛ كما سبق بيانه في درس التخطيط !!

وقد تكلمنا في خطبة العام الماضي عن (الهجرة والإيجابية في حياتنا المعاصرة بين الواقع والمأمول) بالتفصيل مما يغني عن إعادته هنا .

